الهوية وانعكاستها بين العمارة التراثية والمعاصرة – مدخل سيميولوجي

ملخص

إن قضية الهوية - من خلال العمارة – هي قضية محورية تهم عالمنا العربي علي وجه الخصوص، حيث إن التماهي الذي وصلت إليه حال العمارة المعاصرة في مجتماعاتنا الحديثة حيث التأرجح بين ما هو تراثي وبين ما هو كلاسيكي روماني وبين إتجاهات بوهيمية لا أصل لها يدفعنا للتساؤل عن هويتنا التي تعبر عن ثقافتنا وجوهرنا ، هذا التساؤل يقودنا بالضرورة عن ضبط مفهوم الهوية أساسا والذي يعاني هو الآخر أضطرابا شديدا وتفوتا كبيرا بين المدارس المختلفة

إن ضبط مصطلح الهوية سيساهم بشكل أولي في وضع خارطة طريق لحل الإشكالية القائمة عن الهوية من خلال العمارة ، وما يستتبع هذا الضبط من تحرير المصطلح من بعض اللبس الذي أصابه ، فهل تساوي الهوية من خلال العمارة في مجتماعتنا الطراز المعماري العربي أو الإسلامي ؟ ولما لا تُعني الهوية المعمارية في المجتمع المصري العمارة الفرعونية؟!! ، ما مدي العلاقة بين مفهوم الهوية من خلال العمارة والطراز المعماري؟ وما مدي إشتباك الهوية من خلال العمارة بالمحيط المكاني والموروث والمحيط الزماني؟.

يستتبع عملية ضبط المصطلح وتصورنا عنه إيجاد منهجية واضحة للتحليل تمكنا من وضع مفاصل وترجمة واضحة للهوية من خلال العمارة ، ونطرح في هذا المجال المنهج السيميولوجي الذي سنشرح لاحقا مدى ملائمته لمعالجة مفهوم الهوية من خلال العمارة.

إن طرح فرضية ورؤية ومنهجية صالحة للعمل والإختبار والتحليل لقضية الهوية من خلال العمارة هو الهدف الأساسي لهذه الورقة البحثية ، والتي كنا نتمني أن يسمح المجال الي تطبيقها بشكل عملي ، إلا أن لضيق المساحة المطروحة للكاتبة ولتعقيد وإشتباك جوانب قضية الهوية سنكتفي بأن تكون هذه الورقة البحثية قاعدة نظرية للتأصيل عن مفهوم الهوية من خلال العمارة وطرح منهجية لتحليلة وقياسه ، سائلين الله تعالي النفع والتوفيق والسداد.

(1) تمهيد

من خلال التجربة الإنسانية عبر التاريخ، حاول الإنسان البحث عن المعنى أو إعطاء المعنى لما يحيطه من عناصر الواقع حتى يستطيع أن يستوعبها ويوظفها ويضعها في إطار علاقات متعددة ليفهم واقعه ككل واحد متجانس ومتكامل يحمل معني، لا مجموعة من العناصر تشكل واقع فوضوي لا يستطيع فهمه.1

والعقل الإنساني عموما يتميز بأنه يقوم بمجموعة من عمليات الفهم والتحليل والربط والتركيب والتفكيك تعرف بعملية الإدراك، وهذا الإدراك في عمومه هدفه الكلي والنهائي هو الوصول إلي المعنى أو التفسير أو التأويل لشيء ما أو مجموعة من الأشياء، لذلك فإن الإنسان مهما إختلف كنهه أو ثقافته أو تجربته أو وظيفته أو خبرته أو جنسيته هو باحث دائم عن المعنى.

هذا المعنى الذي يبحث عنه الإنسان تجسد بشكل أو بآخر عبر التاريخ الإنساني في الأساطير والعقائد (معنى الحياة وفعل الخير والشر)، وفي العلوم (معنى الطبيعة ومكوناتها وكيف يتعامل معها)، وفي الفلسفات المختلفة..الخ، وفي العمارة بكونها تمثل الوعاء الشامل لكل ما سبق، لذلك فالعمارة تعبر في مرة عن هوية الإنسان وثقافته وتعاطيه مع الواقع (معنى وفهمه لـ **"هويته"** وكيفية وجوده)، وفي مرة تعكس إحتياجاته ومتطلباته (معنى وفهمه لكيفية استمراره).

حتى المجتمعات الحالية والفلاسفة والمنظرين المعاصرين أصبح شغلهم الشاغل هو وضع التفسيرات وإقامة التصنيفات في محاولة فهم وإجابة عن سؤال هو: لما تبدو الأشياء وتتصرف على النحو الذي نراها به؟، فيما يبدو أنه رحلة أخرى أكثر تعقيداً وتركيباً للبحث عن المعنى والتفسير الذي يقف وراء الأشياء، حتى أن جورج لاكوف ناقش فكرة مقدرة الإنسان على التصنيف بكونها العنصر الأساس في عملية الإدراك العقلي، فيقول "دونما المقدرة على التصنيف، لن نستطيع أخذ أي فعل أو رد فعل فيما يخص عالمنا المادي أو حتى عالمنا الإنساني والذهني، ففهم مقدرتنا على التصنيف (The Ability of Categorize) محوري وأساسي لأي تفسير نستطيع من خلاله فهم ما يجعلنا نحمل صفة بشرية"2، هذه المقدرة على التصنيف يقف ورائها رغبة لإيجاد تفسير وبالتبعية المعنى.

من هذه الخلفية المعقدة لفهم طبيعة الإنسان البشرية بكونه كائن باحث دائم عن المعنى تنشأ أزمة – هي أزمة معنى في الأساس – هذه الأزمة يتردد صداها في عدة أزمات أخرى **كأزمة الهوية** وأزمة المرجعية وغيرها من الأزمات، و سببها هو أن الإنسان يفتقد المعنى فيما حوله من تركيبات ومنتجات المجتمعات الحديثة لاسيما العمارة، لأن تلك التركيبات تكتسب شكلها وتخرج إلي الواقع من خلال قوانين حسابية وضعية بحته، هذه القوانين - كما قال عنها آلن كولجهون في كتابه (Typology of Design Methods) - ليست موجودة في الطبيعة، وإنما هي فقط نماذج تم تطويرها في عقل الإنسان وتظل على صورتها إلي أن يثبت الواقع فشلها فيتم الاستغناء عنها، ومع تغيرها المستمر تفقد تواصلها مع أصولها ويفتقد الإنسان المعنى فيها فتنشأ أزمته في فهم ما حوله.

1- Alen Colquhon**, Typology & Design Method in meaning in Architecture**, New York, Georg Brazillian, 1969, P: 268.

2- Keneth A. Shock, **Conveying meaning through architecture**, Master's Thesis, Architecture department, Taxes Tech University, USA, 1995, P: 2.

ومما سبق فإن قضية المعنى بكونه يصنف في قمة هرم إحتياجات الإنسان كوجه من أوجه الانتفاع الرئيسة له، ومن أزمة المعنى التي نعيشها في كثير من منتجات الواقع بما فيها فن العمارة الذي يعبر عن واقع هذه المجتمعات، وبين فهم طبيعة الإنسان المعقدة بكونه كائن باحث دائم عن المعنى وكيفية إدراكه له، تكمن أهمية دراسة قضية الهوية بكونها محورا أساسيا للمعني الذي يبحث عنه الإنسان كوجه من أوجه الانتفاع الأصيلة في العمارة.

(1-2) فرضية الدراسة.

العمارة والنتاج العمراني عموما هو لغة غير منطوقة يمكن قراءتها كمصفوفة من الرموز والصيغ الجمالية والتشكيلية تحوي بداخلها ما يعبر عن صانعها او تتضمن رسائل الي مستخدمها ومن يتفاعل معها.

(1-3) نطاق البحث.

تتناول الدراسة قضية الهوية وارتباطها بالعمارة والعمران من وجهة نظر علم السيمولوجيا وتحديدا من خلال ما يسمى بمنهجية "التحليل السيميولوجي المشروط لتحليل المشاهد الميدانية" ، وهي المنهجية الأحدث التي استخدمها فريق بحثي ياباني عام 2008 بقيادة البروفيسور تيريوكي موناي والبروفيسور موتوكي موريامًا من جامعة كيوتو ،حيث قام الفريق بدراسة 200 مشهد ميداني تاريخي باليابان بهدف الخروج بمنظومة القيم والمعاني التي تتضمنها عمارة تلك الاماكن والتي تُـــكسبها سحر خاص يجذب المستخدمين إليها.

(1-4) طرح النقاط البحثية في إطار تسلسل الدراسة.

المبحث الأول: (ما هي الهوية ؟ - دراسة نقدية) وهو عرض للأدبيات والمرجعيات والخلفيات النظرية المتعلقة بقضية الهوية عموما وتفسيرها داخل فن العمارة خصوصا.
المبحث الثاني: التعريف بالسيميولوجيا وربطها بالعمارة في اطار فهمنا لقضية الهوية.

(1-5) نتائج الدراسة.

تتركز نتائج الدراسة حول مفهوم الهوية وتوثيق علاقته بالعمارة والعمران ، ومدي ملائمة السيولوجيا كمنهج تحليلي نقدي لمفاهيم فلسفية خاصة مفهومنا عن الهوية

(2) الهوية – دراسة نقدية

(2-1-1) المعني اللغوي للهوية :

مصطلح «الهوية» لفظ تراثي قديم، موجود في كتب المصطلحات مثل «التعريفات» للجرجاني. ومعناه أن يكون الشيء هو هو، وليس له مقابل مما يدل على ثبات الهوية، وهو موجود أيضاً في المعاجم والقواميس الغربية في مصطلح "أيداندیتي" وأحياناً في مصطلح «الإنية» مشتق من «أنا» بنفس المعنى،و يستعمله الفارابي في كتاب «الحروف»، في مقابل اللفظ الغربي "آلتريتي" ويعني الغيرية. وهو على نقيض الهوية، وقد تكون الغيرية نسبية وليست كلية. وليس للفظ الأجنبي لفظ عربي قديم مقابل، وقد ترجمه المحدثون بلفظ «اغتراب»، وقد يكون المقابل لفظ «اختلاف». وهو موجود عند القدماء. وموجود في التراث الغربي الاختلاف "ديفرانس". وأصبح التقابل بين الهوية والاختلاف شائعاً. وفي التراث العربي «الاختلاف» أكثر شيوعاً من الهوية لأنه لفظ بسيط في حين أن الهوية لفظ مركب من الضمير المنفصل «هو» لا يتكرر.[3]

الهوية هو مصطلح يستخدم لوصف مفهوم الشخص وتعبيره عن فرديته وعلاقته مع الجماعات (كالهوية الوطنية أو الهوية الثقافية)،يستخدم المصطلح خصوصا في علم الاجتماع وعلم النفس، وتلتفت إليه الأنظار بشكل كبير في علم النفس الاجتماعي، جاء مصطلح الهوية في اللغة العربية من كلمة (هو) وذلك كما جاء في معجم المعاني الجامع ، حيث وجدنا :

- هَوِيّة:(اسم) مَنْسُوبٌ إِلَى هُوَ .
- الهَوِيَّةُ : البئرُ البعيدةُ القعر.
- هُوِيَّةُ الْإِنْسَانِ: حَقِيقَتُهُ الْمُطْلَقَةُ وَصِفَاتُهُ الْجَوْهَرِيَّةُ.
- الْهُوِيَّةُ الْوَطَنِيَّةُ: مَعَالِمُهَا وَخَصَائِصُهَا الْمُمَيَّزَةُ وَأُصُولُهَا .
- بِطَاقَةُ الْهُوِيَّةِ : الْبِطَاقَةُ الشَّخْصِيَّةُ تَحْمِلُ اسْمَ الشَّخْصِ وَتَارِيخَ مِيلاَدِهِ وَعَمَلَهُ وَجِنْسِيَّتَهُ
- الهُوِيَّة: إحساس الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكيَّاته وأفكاره في مختلف المواقف .

(2-1-2) الإجتهادات الفلسفية حول مصطلح الهوية:

إن السؤال عن هوية الإنسان هو سؤال ثقافتنا المعاصرة بامتياز، والسؤال مرتبط بالمفارقات التي تشق الوجود الإنساني حيث تتعلق هذه المفارقات بتوزع الوجود الإنساني بين البناء والتهديم، وقدرة الإنسان اللامتناهية على الإبداع والتسامي ، تمسكه بأكثر المعتقدات سحرية وأسطورية ولكن كذلك إبداعه للفلسفة العلم، قدرته على الحب كما الكراهية.

انطلاقا من هذه المفارقات التي تشق الوجود الإنساني يقر ادغار موران أن الهوية الإنسانية هي هوية قائمة على الكثرة، كثرة هي من صلب الوجود الإنساني ذاته، كثرة تتجلى في كون الإنسان هو كائن صانع و كائن اقتصادي وكائن المعرفة وكائن الانفعالات والرغبة، وهو الكائن الخير كما الكائن القادر على الإتيان بأعتى صنوف الشر،لذلك لا يمكن مقاربة الإنسان من جهة الوحدة ولا تعيين هويته كهوية بسيطة فالهوية الإنسانية هي هوية مركبة.

قد أصبحت الهوية عنواناً لفلسفة "فلسفة الهوية" عند شلنج أي أن يكون الوجود مطابقاً لنفسه دون فصام أو انقسام أو ازدواجية أفلاطونية أي تطابق الروح والطبيعة أو المثال والواقع دون حركة أو جدل أو مسار كما هو الحال عند هيجل. فهي ليست فقط هوية رياضية أو منطقية أو فلسفية أو نفسية بل هي هوية أنطولوجية أقرب إلى وحدة الوجود عند الصوفية، فالهوية قد تنتقل من تجربة فردية إلى الوجود كله فالهوية ليست مجرد ظاهرة نفسية بل ظاهرة كونية.

وإذا صعب تحديد الهوية إيجاباً فإنه من السهل تحديدها سلباً حيث بالضد تضح الأشياء ، ففقدان الهوية أو ما يسمى بالاغتراب، أن تخرج الهوية خارج الوجود، تتخارج وتصبح بديلا عنه، يرى فيها الإنسان وجوده، وينسى وجوده الأصلي وقد تحدث الفلاسفة خاصة الهيجليين منهم عن الاغتراب أكثر مما تحدث الفلاسفة عن الهوية.

نخلُص مما سبق أن الهوية لغةً وفلسفةً هي أن يتطابق المظهر مع الجوهردون أنفصام حيث يكون الشيء هو هو، والهوية أيضا هي حالة جماعية ليست فردية وكذلك هي ظاهرة كونية.

(2-1-3) قضايا حول مصطلح الهوية من خلال العمارة:

أ – إشكالية الهوية في مقابل الطراز المعماري:

إذا كانت الهوية تعني تطابق الجوهر مع المظهر ، فكيف لنا أن تصبح الهوية من خلال العمارة تطابق هوية مجاميعنا البشرية ؟! ، هل مفردات العمارة الإسلامية العربية أو العمارة الحداثية أو العمارة القوطية تحل فيها هوية مجموع بشري ما بحيث تصبح هي الهوية؟! ، إن هذه الفرضية تقودنا الي أن إذا تعرضت مفردات هذا الطراز المعماري أو ذلك الي تطور أو تغير فهذا يعني تغير في هوية المجموع

[3] د. حسن حنفي،**مسألة الهوية.. رؤية فلسفية**، مقال التجديد العربي، http://www. http://arabrenewal.info5، بتاريخ: السبت , 27 سبتمبر , 2016 م.

البشري وهو ما يستحيل في الواقع بالتجربة ، إذا أخذنا علي سبيل المثال مجتمع مدينة القاهرة من العصر المملوكي الي الآن نلاحظ بلا شك تغير في مفردات الطرز المعمارية المستخدمة ، فهل يعني هذا أن حدث تغير في هوية المجتمع ذاته؟!، لا يمكن الجزم بحتمية هذه النتيجة ، بل الأقرب أن ما حدث من تغيرات لا تلمس جوهر هوية المجتمع ، فالقيم الحاكمة للمجتمع ما زالت متجذرة في القاهريين ، فالأغلبية تتحدث العربية وتدين بدين واحد وتتكل في مجمعات سكنية وتشتغل بالتجارة أو وظائف الدووابن سابقا والحكومة حاليا ، وسنجد أن تلك القيم ما زالت سارية من حيث وجود بيوت للعائلة والترابط الأسري (صلة الرحم) ، (الخصوصية والستر) التي تمثلت في عناصر قديمة كالمشربيات ما زالت موجوده في بيوت القاهرة لكن بمفردات مختلفة ووسائل أخري كوجود زجاج عاكس للنوافذ ، ما زال تراص البيوت الذي يعبر عن تلاحم النسيج المجتمعي موجود وما زالت الجوامع الكبيرة تحتل مراكز وميادين القاهرة الجديدة كما كانت قديما لتعبر عن مركز الالتفاف والارتباط المجتمعي بحيث يكون هو مرجع حل المنازعات والمشاكل وعقد الزيجات والحديث في المشكلات وما الي ذلك.

إن ما نود الأشارة إليه أن الهوية ترتكز علي قيم معينة لا يعبر عنها طراز معماري بعينه ، فلا يعني استخدام لتصميم ذو طابع حديث داخل مجتمع القاهرة بأني تخليت عن هويتي ، ولكن إذا عبر التصميم المعماري عن تلك القيم التي توافق (الجوهر) كقيم الستر والخصوصية وصلة الرحم والتلاحم المجتمعي فهو تصميم (مظهر) تطابق مع (الجوهر) ، وبالتبعية فإن فكرة التحدد بطراز معماري معين ليصبح هو معبر عن الهوية هو محاولة لاختزال التطور الذي يطرأ علي الطرز المعمارية وأدوات البناء وتطور الخامات وكذلك الحد من إبداع المعماري.

إن عبقرية العمارة العربية الإسلامية في مجتماعتنا لم تكن في مفرادتها في حد ذاتها التي تعبر حتما عن هويتنا ، ولكن عبقريتها جاءت في تطابقها مع قيامنا التي نعيش بها، فالمشربيات عبرت عن مفهوم الستر والخصوصية ، والأفنية الداخلية للمنازل عبرت عن قيمة التمحور نحو الداخل والإلتفاف الي الذات والارتباط بالسماء ، واستخدام المواد الطبيعية جاء تعبيرا عن مفهوم الإقتصاد والتلائم مع المحيط وعدم النشوذ عنه ، والتوجه والتلاحم مع السماء باستخدام عرائس السماء وخطوط المباني العلوية ذات المستويات المختلفة ... الخ.

ب - الهوية في مقابل الموروثات التاريخية (البعد الزماني).

إن التأثر الحتمي الذي يحدث في المجتع الواحد بموروثاته المتناقله عبر الزمن فهي حتما تعبر عن هوية معمارية ، ومثال واضح علي ذلك عمارة النوبة ، فمثلا في النوبة القديمة نجد رموزية عالية في استخدام الألوان، فبين الأبيض والأزرق والأخضر يعبر أهل النوبة عن شخصيتهم المسالمة ومعنى الطهارة في اللون الأبيض، وتأثرهم بفيضان النيل والزرع والفرحة المرتبطه بهما في ثقافتهم باللون الأخضر والأزرق، وكذلك فإن استخدام الأسود يعبرعن الحزن والضيق ، إن ذلك التعبير اللوني المميز الذي نجده في منازل وجداريات النوبه هو بلا شك يعبر عن هوية المجتمع النوبي.

بيت نوبي تقليدي بقرية غرب سهيل بأسوان، يضوح تعدد إستخدام الألوان للتعبير عن المعنى.
(المصدر: Egyptian Nubian Arabic African culture)

جـ - الهوية وارتباطها بالموضع (البعد المكاني).

إن البناء داخل نطاق مكاني معين يفرض ثقافة معينة للتصميم والبناء ، فمثلا نجد أن المنازل التي تُبني في الأجواء الصحراوية غير تلك التي تبني في الأجواء الزراعية ، والتي تبني في القري عن التي تبني في المدن ، ولا شك أن تلك الثقافة في البناء التي تنبع من

الإرتباط بالمكان تصبح مشكلا للهوية من خلال العمارة ، فإستمرارا لمنازل النوبة نجد اللجوء الي عمل فتحات النوافذ بشكل ضيق وصغي جدا أعلي الحوائط وذلك لظان المكان فرض عليهم تلك المعالجة للنوافذ لتساعد في إخراج الهواء الساخن من المنازل.

خلاصة:

إن الهوية من خلال العمارة ليست بالضرورة طراز معماري معياً كالعمارة الإسلامية أو القوطية أو غيره ، إنما الهوية من خلال العمارة ترتكز في الأساس علي قيم تترجم الي عناصر وفراغات وتشكيل ومفردات معمارية، كذلك فإن المحدد المكاني والموروث الزماني هي من مكونات الهوية .

مما سبق إذا افترضنا أن الهوية من خلال العمارة تتشكل من ثلاث تكوينات محددات مكانية ، موروثات ومعتقدات عبر الزمن ، قيم حاكمة) فإنه يمكن ترجمة مستويات الهوية من خلال العمارة حسب تكوينتها الي ثلاث مستويات ، فالمحددات المكانية سنشير اليها بالمستوي الدلالي وتشير الي الحقائق التي يحتويها التشكب مرتبطة بثقافة المكان في البناء كتوجية المبني ونوع وشكل الفتحات وتوزيع الفراغات الداخلية .. الخ، أما المستوي الثاني هو المستوي التصريحي وهو المرتبط بالموروثات والمعتقدات عبر الزمن وتترجم في النباء الي ألوان معينة أو استخدام خامات معينة كاستخدام أهل النوبة الي اللون الأبيض تعبيرا عن السماحة أو اللون الأسود تعبيرا عن الارواح الشريرة أو الأخضر والازرق تعبيرا عن الخير ،أما المستوي الثالث فهو المستوي الكامن وهو الذي يعبر عن القيم الحاكمة من خلال العمارة وأشرنا إليه بالمستوي الكامن لأن في الأغلب تلك القيم لايمكن التعبير عنها بشكل مباشر كما هو الحال في المستوي التصريحي أو بشكل دوال كما هو الحال في المستوي الدلالي .

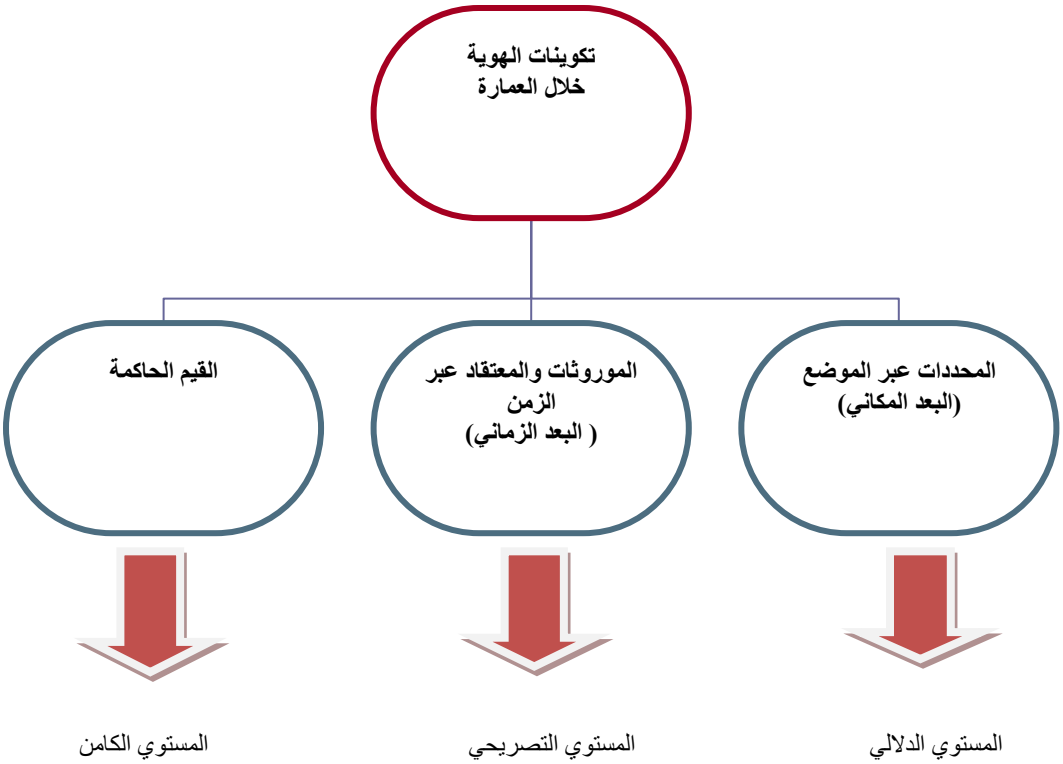

شكل2-1: تكوينات الهوية من خلال العمارة.
(المصدر: عن الباحث.)

(3) السيميولوجيا

عرف النقد الحديث والمعاصر مجموعة من المناهج النقدية، منها المنهج السيميولوجي التحليلي والذي ظهر في أواخر الستينيات من القرن الماضي، والسيميولوجيا هي علم الدلالة العام أو ذلك العلم الذي يبحث في تفسيرات اللغات غير المنطوقة كلغة العلامات والأشكال، ومن حينها والسيميولوجيا تشهد توسعاً في كافة الإتجاهات، فالمؤلفات التي تبحث في العلامات وأصنافها طغت على غيرها من الأدبيات بل إنه بسبب شمولية هذا العلم بات من الممكن التطرق لأي مجال من وجهة نظر سيميولوجية، كما أنه ظهرت عشرات المجلات المتخصصة في هذا المجال، أشهرها مجلة الجمعية الدولية للدرسات السيميائية، ومجلة Simiosis الألمانية، وVersus الإيطالية 4، ونجد أن السيميولوجيا ربما ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بعدة مرجعيات وركائز مختلفة منها على سبيل المثال الأفكار الفلسفية النقدية لأرسطو وأفلاطون، والتراث العربي الإسلامي ذو الطابع المتصوف وبعض دراسات البلاغة والأدب للجاحظ على سبيل المثال، وبعض أفكار علماء المنطق ومنهم بيرس وفريج وراسل، واللسانيات البنيوية والتداولية والتحويلية بكل مدارسها وإتجاهاتها، والشكلانية الروسية ولا سيما فلادمير بروب صاحب المتن الخرافي، وفلسفة الأشكال الرمزية مع آرنست كاسيرر الذي درس الأنظمة التواصلية (الدين والإسطورة والفن والتاريخ والعلم).

ومما لاشك فيه أن العالم اللغوي السويسري فرديناند دي سواسير5 هو أول من تنبأ بعلم يدرس حياة العلامات وسط الحياة الإجتماعية، وهو القائل بأن هذا العلم هو جزء من علم النفس الإجتماعي، وبالتالي هو يتبع علم النفس العام، وقد أطلق عليه دي سواسير أسم علم السيميولوجيا Semiology وهو مشتق من اللفظة اليونانية Semeion و تعني العلامة، وعلى التوازي لتلك الفترة توصل أحد الفلاسفة الأمريكان وهو تشارلز ساندرس بيرس إلي تأسيس علم السيمياء الحديث وأعتبر هو أول باحث منهجي لهذا العلم.6

وإذا كانت اللسانيات تدرس كل ما هو لفظي ومنطوق، فإن السيميولوجيا تدرس ما هو لغوي وما هو غير لغوي كما إنها تتعدى المنطوق، فتدرس كل أوجه نشاط الإتصال المختلفة في الحياة كالعادات والتقاليد الاجتماعية ولا سيما العمارة. 7

وبقي لنا في هذا الصدد أن نذكر ما قاله جون لاينز في كتابه علم الدلالة أنه لم يقدم أحد حتى الآن نظرية شاملة في علم الدلالة8، وهذه النقطة يجب أن توضح في أي مناقشة لهذا الموضوع، وعلى كل حال فإن عدم تبلور نظرية منسقة لعلم الدلالة حتى الآن لا يعني أنه لم يحرز أي تقدم في الدراسة النظرية للمعنى.

(3–1) إشكالية المصطلح.

تُجْمع عدة كتابات ومعاجم لغوية على أن السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يُعْنَى بدراسة العلامات، وبهذا عرفها فرديناند دي سوسير، وجورج مونان، وكريستيان ميتز، وتزفيتان تودوروف، وجوليا كريستيفا، وجون دوبوا، ورولان بارث، وآخرون9، ويبدو أن تعريف مونان أوفى هذه التعريفات إذ يحدد السيميولوجيا بأنها "العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات أو الرموز التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس".

إن كلمة سيميولوجيا (Semiology) أو سيميوطيقا (Semiotic) مشتقة من الأصل اليوناني (Semeion) كما يشير إلى ذلك سوسير في محاضراته، ومن الناحية التركيبية فهي منحوتة من مفردتين؛ أولاهما (Semeion) التي تعني علامة، وثانيتهما (Logos) التي تفيد معنى العلم أوالمعرفة.

ولا ريب أن قضية المصطلح من القضايا الشائكة التي تُطرح في هذا المجال، إذ ما زال هذا المصطلح يعاني الفوضى والإضطراب، ويعد المصطلح المُسَمّي لمفهوم السيميولوجيا واحدا من النماذج البارزة على هذا الاضطراب، إذ نجد كثيرا من الدارسين يستعملون مصطلحي السيميوطيقا والسيميولوجيا على سبيل الترادف، كما أن أغلب الباحثين العرب يستخدمون مصطلحات السيميوطيقا والسيميولوجيا والسيميائيات على أنها أسامٍ دالة على معنى واحد ومع تنامي الوعي بأهمية المصطلح وتزايد الإحساس بضرورة ضبطه وتوحيده، وجدنا

4- عادل فاخوري، **حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)** ، مجلة عالم الفكر، مجلد 24، عدد 3، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، صـ 187.

5- من ويكيبديا الموسوعة الحرة : فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure عالم لغويات سويسري وهو مؤسس البنيوية في اللسينيات، من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث حيث اتجه بتفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية وكانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، وكان السبب في هذا التحول الخطير في دراسة اللغة هو اكتشاف اللغة السنسكريتية، ولد دي سوسير في جنيف، وكان مساهما كبيرا في تطوير العديد من نواحي اللسانيات في القرن العشرين، كان أول من أعتبر اللسانيات كفرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية أقترح دي سوسير تسميته semiology ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات، (1857–1913).

6- د.محمد إقبال عروي، **السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير**،مجلة عالم الفكر،مجلد 24 ،عدد 3 ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، صـ 190.

7- www.wikipedia.org

8- جون لاينز، **مقدمة في علم اللغة النظري**، ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة، كلية الآداب جامعة البصرة، 1980، صـ 13.

9- د.محمد إقبال عروي، السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، مجلد 24، عدد 3، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، صـ 190.

عدداً من الباحثين ينتبهون إلى الفروق الموجودة بين المصطلحات التي كان يُظَنُّ أنها من قَبيل الترادف، وبناء على هذا الأمر، إلتفت بعض الدارسين إلى التمييز بين مصطلحي السيميولوجيا والسيميوطيقا، مثلما فعل جون دوبوا، وعمد آخرون إلى التفريق بين السيميوطيقا والسيميولوجيا والسيميائيات، بحيث عُرّفِت السيميولوجيا بأنها علم يدرس العلامات وأنساقها داخل المجتمع، والسيميوطيقا بأنها النظرية العامة للعلامات والأنظمة الدلالية اللسانية وغير اللسانية، وحدد السيميائيات بأنها دراسة اللغة من زاوية الدلالة، ويعرّف الأوكسفورد هذا المصطلح بأنه دراسة معاني الكلمات، ومن هذا كله نجد أن السيميولوجيا علم، والسيميوطيقا نظرية، والسيميائيات دراسة أو منهج نقدي.10

إن الأوربيين يستعملون مصطلح السيميولوجيا بتأثير من دي سوسير الذي وضع هذا المصطلح، واستعمله في محاضراته فيقول: "يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علماً سيشكل فرعاً من علم النفس الاجتماعي، ومن ثم فرعاً من علم النفس العام، وسوف نطلق على هذا العلم إسم سيميولوجيا من اللفظة الإغريقية Semeion التي تعني علامة".11

أما الأمريكيون فقد إستعملوا مصطلح السيميوطيقا بتأثير من بيرس الذي وظفه في مختلف كتاباته حول العلامة، إلا أن المصطلحين معاً عرفا انتشارا متبادَلاً، ويكفي أن ندرك أن المنتمين إلى الثقافة الفرنسية لم يقصوا تماماً من دائرة إهتمامهم وكتاباتهم مصطلح السيميوطيقا، نظراً إلى إنتشاره الواسع في الثقافات الأخرى، ويصر بارث وأتباعه على إستخدام مصطلح السيميولوجيا، وينحو نحوَهم أندريه مارتيني وتلاميذه من الوظيفيين، في حين إن من أطلق عليهم J.C. Couquet إسم مدرسة باريس يستعملون مصطلح السيميوطيقا لا غيرُ.

وقد حدد معجم جريماس الفارق بين المصطلحين في اللغة الفرنسية 12،بأنْ جعل السيميوطيقا تحيل إلى الفروع، أي إلى الجانب العملي والأبحاث المنجزة حول العلامات اللفظية وغير اللفظية، في حين إستعمل السيميولوجيا للدلالة على الأصول، أي على الإطار النظري العام لعلم العلامات، وفرق آخرون بين المصطلحين على أساس أن السيميولوجيا تدرس العلامات غير اللسانية، في حين تدرس السيميوطيقا الأنظمة اللسانية كالنص الأدبي.13

ولكن التفرقة بين السيميولوجيا (Semiology) والسيميوطيقا (Semiotic) لم تعد قائمة، خصوصا بعد أن قررت الجمعية العالمية للسيميائيات - التي تأسست عام 1974م - تبني مصطلح (Semiotics)14، وبهذا فقد يكون بدأ ضبط المصطلح في اللغة الإنجليزية والفرنسية، لكن المصطلح ما زال يعاني إضطراب في ترجمته للغة العربية، ومن الواضح أن الدارسين العرب مختلفون في شأن ترجمة هذا المصطلح، فمنهم من يستعمل مصطلح السيميائيات، وهو المصطلح الرائج بين صفوف المغاربيين، ومنهم من يترجم ذلك المصطلح بالسيميولوجيا ومنهم من يترجمه ترجمة حرفية أي بلفظ سيميوطيقا، ويستعمل بعضهم مصطلح الرموزية ويقترح آخرون مصطلح الأعراضية مقابلا للمصطلح الأجنبي (Semiology) وهي الترجمة التي وجدناها في القاموس الإلكتروني لجوجل على شبكة المعلومات الدولية 15 وكما فعل الباحثان يوسف غازي ومجيد النصر في ترجمتهما لدروس سوسير، ويترجم الأستاذ عبد القادر قنيني مصطلح (Semiotic) بـعلم الدلالة، وهناك من يستعمل مصطلح سيمياء أو علم السيمياء، ويؤثر بعض الباحثين لفظ السيمياء بإعتباره مصطلحاً عربيا أصيلاً وشائعاً في كتب التراث، يقول الدكتور عادل فاخوري: "فالعلم نفسه أي الـ Semiotics يترجَم بـ :السيمياء، السيمية، السيميائية، السيميوطيقا، السيميولوجيا والرموزية، والأفضل السيمياء لأنها كلمة قديمة متعارَفة على وزن عربي خاص بالدلالة على العلم" 16، وفي السياق نفسِه، تقول الدكتورة جميلة حيدة: "ولعل ترجمة مصطلح سيميولوجيا أو سيميوطيقا بالسيميائيات أو السيمياء هي الأقرب إلى الصواب لشيوعها في الإستعمالات العربية القديمة".

ونحن نرى في هذا الصدد أن نستخدم لفظة السيميولوجيا وذلك بكونها اللفظة الأساس والأولى التي إستخدمها دي سوسير للإشارة الي علم الدلالة العام، كما نرى أنها الأقرب في النطق من ناحية اللغة العربية إلي اللفظة المقابلة في الإنجليزية، ونعتقد أن حجة من ينادون بإستخدام لفظة سيمياء على أساس أنها أصيلة في اللغة العربية واستُخدمت في عدة كتابات تراثية عربية هي حجة غير مقنعة، بحيث أن هذه اللفظة أصطُلح على إستخدمها كدلالة على علم أسرار الحروف، واقتصر استخدمها على اللغويين والبلاغيين على نحو واسع، ولم تسع اللفظه للإشاره الي علم الرموز عموماً ولم تتطرق الي دراسات العلامة إلا فيما ندر.

10- فريد أمعضشو ،**المنهج السميائي**، مقال ،شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية، http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?t=4725، بتاريخ: السبت , 11 يونيو , 2011 م.

11- د.محمد إقبال عروي، **السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير**، مجلة عالم الفكر، مجلد 24 ، عدد 3 ، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، صـ 190.

12- فريد أمعضشو ،**المنهج السميائي** ،مقال ،شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية ، http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?t=4725 ، بتاريخ: السبت, 11 يونيو , 2011 م.

13- فريد أمعضشو، مرجع سابق.

14- عادل فاخوري ،**حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)** ، مجلة عالم الفكر،مجلد 24 ،عدد 3 ،الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996،صـ 187.

15- http://translate.google.ae/#en|ar|Semiology، بتاريخ: الإثنين, 18 إبريل, 2011م.

16- عادل فاخوري، مرجع سابق، صـ 187.

(3 – 2) السيميولوجيا بين العلم والمنهج والنظرية.

أحد أهم المترتبات على إضطراب المصطلح هو الإختلاف الواضح حول ماهية وكنه السيميولجيا، إن السيميولوجيا علم من العلوم، يخضع لضوابط ونواميسَ معينة كما هو الشأن بالنسبة إلى العلوم الأخرى، وهذا ما تنص عليه الكثير من التعاريف (سوسير– تودوروف–بارث- ...إلخ)، ولكن ثمة تعريفات وآراء أخرى تنظر إلى السيميولوجيا باعتبارها منهجاً من المناهج، أو وسيلة من وسائل البحث.

حيث يشير مونان إلى أن السيميولوجيا وسيلة عمل، أي منهج من مناهج البحث، ومن هنا نقف على شيء من الخلط في كلام مونان فهو تارة يذكر السيميولوجيا على أنها علم عام يدرس العلامات المختلفة، وتارة يذكرها بوصفها منهجاً بحْثيا، ونجد هذا الخلط بارزاً عند بعض الدارسين العرب الذين يعرّفون السيميولوجيا بأنها علم أو دراسة في الآن نفسه، يقول صاحبا دليل الناقد الأدبي مثلا: "السيميولوجيا أو السيميوطيقا لدى دارسيها، تعني علم أو دراسة العلامات دراسة منظمة منتظمة"17، والسيميوطيقا عند شارلز ساندرس بيرس نظرية شبه ضرورية أو شكلية للعلامات، إذاً فنحن أمام ثلاثة آراء: رأي يعتبر السيمولوجيا علما، وثان يجعلها منهجا، وثالث يتخذها نظرية عامة.

ويبدو أن الدارسين العرب المعاصرين يتـــعاملون مع السيمـــيولوجيـــا باعتبارها منهجاً يساعد على فهم النصوص والأنساق العلامية وتأويلـــــها، وهكذا فإننا نجد دراسات وأبحاثا يتوسل أصحابها بالسيميـــولوجيا بصفتها منهجا في المقاربة والدراسة، ومن ذلك بعض دراســـــات محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض التي تعمد إلى تجريب المنـــــهج السيميولوجي في تشريح نصوص أدبية قديمة وحديثة، ومن الدارسين الذين يعتبرون السيميولوجيا منهجا نجد الدكتور عبد الرحمن بوعلي18 و الـــــذي يقول في تقديمه لكتـــــاب جيرار دولودال (السيميـــــائيات أو نظرية العلامات) الذي ترجمه إلى العربية:

> "تحتل السيميوطيقا أو السيميولوجيا مكانة هامة ضمن المناهج النقدية، وإن كان البعض يعتبرها مجرد موضة من الموضات، فإن هذا الوصف لم ينقص من قيمتها كمـــنهج علمي وإجرائي في الدراسات الأدبيـــــة وتحليل النصوص الأدبية بالدرجة الأولى، بل ولم يزد المشتغلين بها إلا مقاومة لكل نزعة تبسيـــطية، ولذلك فهي في الإعتبار الصحيح منهج لا يمكن التقليل من أهميته أو التقليص مما يمكن أن يفتحه من سبل وآفاق جديدة تنير مجاهل التعبير الأدبي والفني".19

ونحن نرى أن الإختلاف حول ما هية السيميولوجيا أصبح لا محل له، لأن السيميولوجيا استطاعت ان تفرض نفسها على الساحة كمنهج بحثي ونقدي لا يمكن تجاهله، أما تصنيفها كعلم من عدمه فهو سيستقر حتماً بعد استقرار المصطلحات واختبار مدى ملائمتها وتطبيقاتها في الواقع، وتلك المرحلة يمر بها أي يعلم في طور البدء والطفولة.

(3 – 3)سيميولوجيا بيرس.

كان بيرس فلكياً، وشارك في الندوة العالمية الأولى لعلماء الأرض التي انعقدت في باريس عام 1876، وقام في العام نفسِه بأبحاث حول حساب الجاذبية، وكان كذلك منطقياً وفيلسوفاً ذرائعيَ التوجه، وقد تحكمت طبيعة ثقافته في صياغة نظريته حول العلامة.

ولفهم سيميولوجيا بيرس بقرب، لا مناص من ربطها بفلسفته التي تتسم بكونها إستمرارية وواقعية وذرائعية، فهي إستمرارية لأنها تتعارض مع النزعة الواحدية والنزعة الثنائية، إذ تأخذ على الواحدية جمودَها ويقينيتها، وتذهـــب إلى أن الفكر ليس منفصلاً خارج الشيء المراد معرفتُه، وإنما هو سيرورة في الأشياء وإستمرارية خلاقة معها، كما أنها فلسفة واقعية فهي تذهب إلى أن الوقائع التي ينبغي الإهتمام بها هي تلك الكامنة وراء الإدراك، وأكد بيرس أهمية الواقع الذي من شأنه أن يزودنا بمعرفة حقيقية، وهي أخيرا فلسفة ذرائعية أو تداولية، لأن منهجها يُفْضي إلى وقائعَ عمليةٍ بمعنى أن سيكون هناك مسببات وإستنتاجات مادية أقرب الي المنطق الرياضي.

وتقوم سيميوطيقا بيرس على المنطق والظاهِراتية والرياضيات، والمنطقُ بمعناه الدقيق هو علم الشروط الضرورية المُوصِلة إلى الصدق، أما بمعناه العام فهو علم القوانين الضرورية للفكر، وبالمنظور البيرسي فهو علم الفكر الذي تجسده العلامات، إنه السيميوطيقا العامة كما يقول بيرس.

والمنطق البيرسي هو منطق العلاقات الذي يعد الأساسَ والضامن للتصور الثلاثي لما يعرف بالمقولات والعلامات في فكر بيرس، وأما الظاهراتية فهي الدراسة التي تصف خاصيات الظواهر في مقولاتها الثلاث، كما تتأسس سيميوطيقا بيرس على فرضية مسماة بالبروتوكول الرياضي والتي تكون العلامة وَفْقَها ثلاثية، وقد سبق لبيرس أن بَرْهن على الطابع الضروري للثلاثية، ذلك بأنه لا يمكننا أن نفكر في العدد 1 دون أن نتصور في الوقت نفسه حده، ولْنُسَمِّه 2، لكن تصور 1 و 2 بوصفهما كيانين منعزلين يستلزم ثالثاً من طبيعة أخرى، يقول بيرس:

17- ميجان الويلي و سعد البازعي، **دليل الناقد العربي**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، 2003، صـ 177.

18- شاعر وأستاذ التعليم العالي ورئيس وحدة التكوين والبحث في الأدب المغاربي الحديث والمعاصر، ولد عام 1954 بمدينة أحفير، حائز على دكتوراه الدولة في موضوع: نشأة الرواية العربية وتطورها من سنة 1836 إلى 2008.

19- فريد أمعضشو، **المنهج السيميائي**،مقال ،شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية ، http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?t=4725 ،بتاريخ السبت, 11 يونيو, 2011 م.

"يستحيل تكوين ثالث أصيل بتغيير الزوج ودون إدخال أي عنصر تختلف طبيعته عن طبيعة الواحد أو الزوج"، وهذا العنصر هو العنصر الثالث، أو بمعنى أخر فإنه يلزم لإثبات أن 1 و 2 ذوا طبيعة خاصة يجب إستحضار ثالث له طبيعة مختلفة عنهما، فالثلاثية إذاً ضرورية وكافية في آن واحد، ضرورية منطقياً وكافية تداولياً، ضرورية لأنه بواسطتها نستطيع تحديد دوائر علاقات ذوات طبائع وخصائص محدده، وأيضا تكوين توليفات عدة ثلاثية العلاقة، كما أنها كافية لأنها يمكنها نظم أي مصفوفة أفكار داخل هذا الإطار الثلاثي، وعليه فإن العدد 3 يلعب دوراً أساسيا في فلسفة بيرس ، تركز سيميوطيقا بيرس على ثلاثة أبعاد رئيسة هي:

(3-3-1) البعد التركيبي.

وهو بعد الممثل أي ما يمثل العلامة سواء من ناحية مادية أو غير مادية منظوراً إليها في علاقتها مع ذاتها، والممثل باعتباره علامة رئيسة يتفرع إلى ثلاث علامات فرعية تبعا لعلاقته بالمقولات الثلاث الأولية والثانوية والثالثية، وذلك على النحو التالي:

العلامة الوصفية: وهي الصفة التي تشكل علامة، ولا يمكن أن تعمل إلا وهي متجسدة ماديا في العلامة الفردية، ومثال العلامة الوصفية اللون الدال على شيء ما.
العلامة الفردية: ويعرفها بيرس بأنها شيء أو حدث موجود وواقعي في شكل علامة، كما أنها موضوع أو حدث فردي20، ويمكن أن نمثل لهذه العلامة بالنصْب التَذكاري أو بعَرَض داء معين.
العلامة العُرْفية: هي قانون أو قاعدة أو مبدأ عام في شكل علامة، وتعد أنساق الكتابة الخاضعة لقواعد الصرف والنحو علامات عرفية.

(3-3-2) البعد الدلالي.

وهو بعد الموضوع، ويتعلق الأمر هنا بالعلامة منظورا إليها في علاقتها بموضوعها الذي تحيل إليه، ويتكون هذا البعد من ثلاث علامات فرعية كالآتي:

الأيقونة Icon: وهي تشبه الموضوع الذي تمثله، يقول حنون مبارك: "إن الأيقونة صورة تَستنسخ نموذجا"21 والصورة الفوتوغرافية مثالٌ لهذا النوع من العلامات.
المؤشر Index: وهي تنسج علاقة مباشرة أو ملاصِقة او مقترنة مع موضوعها، ومثالها الدخان الذي هو أَمارة على وجود النار.
الرمز Symbol: وهو يحيل إلى موضوعه بفضل قانون أو أفكار عامة مشتركة، وتعد كل علامة تعاقُدية أو اصطلاحية رمزا، والرمز باعتباره علامة فرعية ثالثة لبعد الموضوع نوعان، أحدهما مجرد Abstract، وهو"شكل منحل عن الرمز الذي ليس لموضوعه إلا طابع عام"22، والآخر متميز أو متفرد Singular، وهو "شكل آخر منحل عن الرمز الذي يكون موضوعه فردا موجودا، بحيث لا يعني هذا الموضوع إلا الطبائع التي يملكها هذا الفرد".23

(3-3-3) البعد التداولي.

وهو بُعْد المؤول، ويخص الأمر هنا العلامة منظوراً إليها في علاقتها بالمؤول أو ما تؤول إليه العلامة أو التفسير الذي تؤول إليه العلامة، وذلك التفسير لا يوجد داخل العلامة بشكل كامل وإنما يعتمد على الإطار الثقافي الذي توجد فيه العلامه والنموذج التفسيري والتحليلي الذي يستخدمه ما ينظر ويتعامل مع العلامه، وقد وصفنا هذا البعد بالتداولي لأنه ينظر الي العلامة من زاوية المفهوم الذي يتم تداولها به، وتبعاً للمنطق البيرسي فإن التفسير يأخذ ثلاثة صور، وذلك كما يأتي:

- علامة تحمل تفسير ذو صفة كيفية (تصور): وهو تفسير من الممكن أن يحمل صفه من صفات الموضوع لكنه يشير بشكل ما الي كيفية معينة أي أنه ربما يؤول الي فعل، وهو ما يعرف في فلسفة بيرس بعلامة الإمكانية الكيفية.

- علامة تحمل تفسير ذو صفة اخبارية (تصديق): وهي العلامة التي تحمل تفسير به خبر أو معلومة عن الموضوع ويعرفها دولودال بأنها "العلامة التي تكون بالنسبة لمؤولها علامة وجود واقعي، وإنها تقدم إعلاما يتعلق بموضوعه"، ويمكن أن نمثل لهذه العلامة بالجملة البيانية.

- علامة تحمل تفسير ذو صفه برهانية (حُجة): وهو علامة تشكل بالنسبة إلى مؤولها قانون أو شبكة علاقات تبرهن وتوضح تفسيرها أو تفسير علامات أخرى في نفس النسق السيميولوجي.

20- فريد أمعضشو، مرجع سابق.
21- فريد أمعضشو، مرجع سابق.
22- فريد أمعضشو، مرجع سابق.
23- فريد أمعضشو، مرجع سابق.

ويمكن أن نلخص الأبعاد الثلاثة المذكورة، وتفريعاتها المترتبة عن علاقتها بالمقولات الثلاث في الشكل التالي:

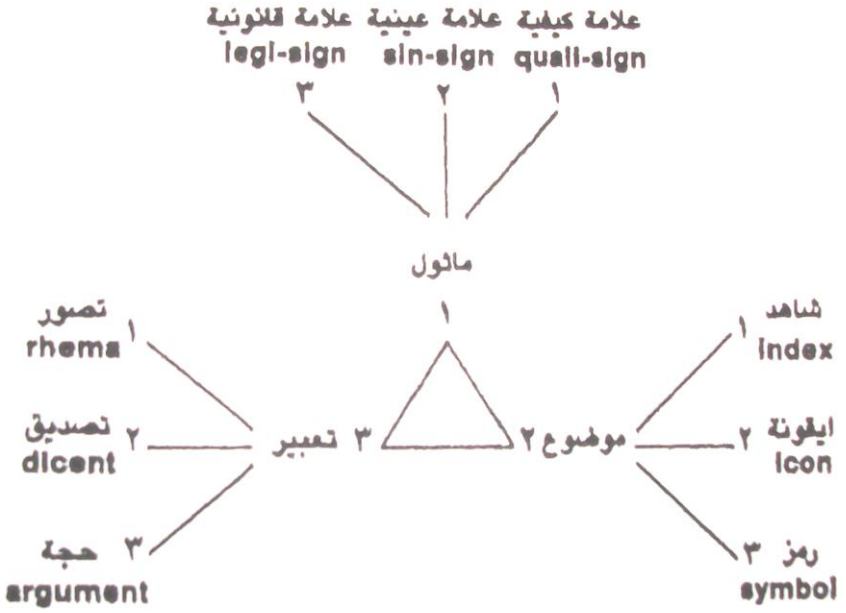

شكل 3-1: تقسيمات العلامة وفق منهج بيرس.
(المصدر: عادل فاخوري، حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)، مجلة عالم الفكر، مجلد 24، عدد 3، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، صـ 187.)

ونلخص ما سبق أن تنظير بيرس للعلامة يربط بين مثلث أضلاعه هو الممثل أو المشير والموضوع والمؤول إليه أو التفسير، وكل ركن من المثلث يخضع لتقسيم ثلاثي أيضا.

تعقيب:

مما سبق نرى أن تفسيرات بيرس للعلامة وتبعا لنظريته عن المقولات الثلاث فإن تقسيم العلامة سيندرج تحت 27 إحتمالاً إختصرها بيرس الي عشرة فقط كما في الشكل (3 –2) ، وهو ما يمكن أن يعطينا قدرة تفسيرية كبيره للعلامه، لكن نتشكك في مدى ملائمته للدرسات متعددة العلامات حيث سنجد أنفسنا أمام المئات من الإحتمالات، والمقولات الثلاث من الممكن أن تولد مجموعة لا متناهية من الأنساق السيميولوجيه، وذلك فقط لمحاولة تصنيفها وتفنيدها، كما أن تقسيمات بيرس تنظر الي العلامة مجرده ولم تتطرق الي المنظومة التي تجد فيها هذه العلامة، وعلي العموم فإن الحكم على مدى ملائمة تقسيمات بيرس للتطبيقات المعمارية لا يمكن استنتاجها الي بإختبارها عملياً ومعرفة مدى قدرتها كنموذج لتفسير ودراسة العلامة.

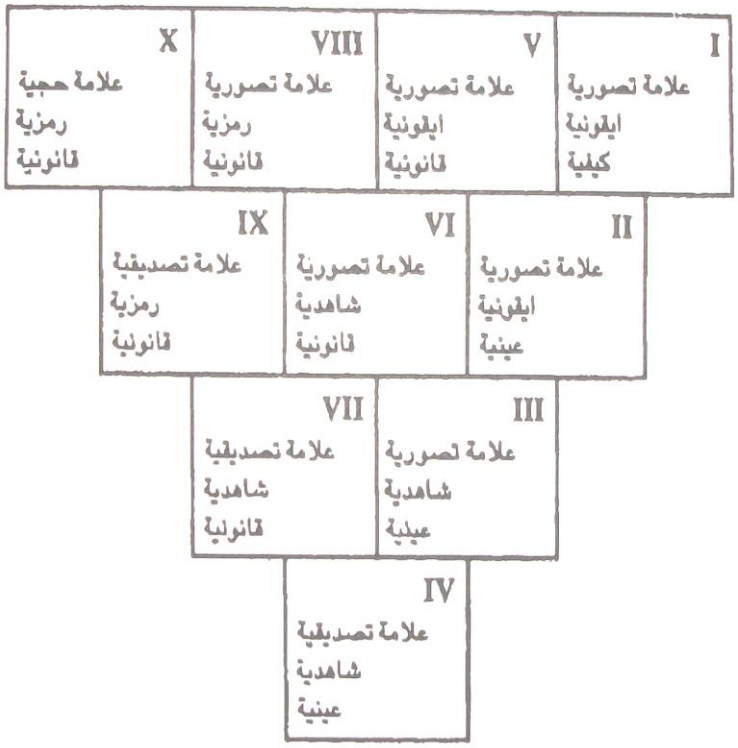

شكل 3-2: الإحتمالات التصنيفية للعلامة وفق بيرس.
(المصدر: عادل فاخوري، حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء) ، مجلة عالم الفكر، مجلد 24، عدد 3، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، صـ 187.)

(4-3)منهجية التعددية السيميولوجية المشروطة لتحليل المشاهد الميدانية.

Multi –Modal Semiosis Theory

الهدف الرئيسي من وضع هذه المنهجية هو قراءة وتفسير المشاهد الميدانية من وجهة نظر السيميولوجيا وتكوين نظام محاكاة نستطيع من خلاله قراءة أو تصميم المشاهد الميدانية ذات المعنى.

(1-4-3) فلسفة المنهجية.

تعمل هذه المنهجية على أساس أن المشهد الميداني هو مرحلة من قصة إنسانية يمكن قرائتها كنص مكتوب، وهي تحتوي على كثير من العلامات منها على سبيل المثال الخصائص والتشكيلات المختلفة والعناصر والأنظمة التي تربط كل ذلك بعضه ببعض، ويمكننا إيجاد الكثير من المعاني المختلفة والتي تستمد من الصور والكنايات والهوية والعلامات التي تعبر عن المحيط الثقافي، لذلك فإنه من المهم ليس فقط دراسة العلامات وإنما شبكة العلاقات التي تربطها.24

عتبر هذه النظرية مطورة من نظريات لعلم اللغات المجتمعية Social Languages وتحديدا نظريات بيرس وتعتمد على فرضيتين اساسيتين 25:

1 – A townscape is a stage of human life, can be read as a text.
المشاهد الميدانية هي مرحلة من حياة إنسانية، يمكن اعتبارها كنص مكتوب نستطيع قرائته.
.2 - All phenomena are grasped as semiosis
أي ظاهرة يمكن تفسيرها داخل المنظومات السيميولوجية.

ويأتي هذا التفسير داخل تصنيف لنظم العلامات ضمن ثلاث فئات، الفئة الأولى هي التعامل مع العلامة من مدخل أنها مكتفية بذاتها وتحمل معناها بداخلها وهي بدورها تنقسم الي ثلاث أنواع، أولا التعامل النوعي وهي ما تتعلق بالشكل واللون والمادة والملمس..إلخ، وثانيا التعامل على أساس العنصر وهو مثل الشبابيك والأبواب والتراسات..إلخ، وثالثا التعامل على أساس النمط وهو مثل الزخارف الجبسية والاتجاه التصميمي..إلخ.

والفئة الثانية هي التعامل مع العلامة من مدخل تشكيلي، و تنقسم الي ثلاث أنواع، الأول هو الأيقونة Icon أي ما يفسر على أنه صورة مستنسخة أو مجاز..إلخ، والثاني هو المؤشرIndex أي ما يحمل صيغة سببية كالوظيفة والمرجعية، والثالث هو الرمزي Symbol أي ما يحمل صفة ترمز الي عرف اجتماعي أو هوية ذاتية..إلخ.

والفئة الثالثة هي التعامل مع العلامة من مدخل تفسيري، وهي تنقسم الي ثلاثة أنواع، الأول التفسير على أساس فردي وهو العلامة وفقط ولا شيء سوى العلامة، الثاني التفسير على أساس النسق التشكيلي أي بالأخذ في الأعتبار أنماط التشكيل المحيط باعتبار العلامة جزء من كل، والثالث التفسير على أساس النسق المكاني أي بالأخذ في الإعتبار أنماط التشكيل لعموم المكان بإعتبارة الصياغة العامة المتضمنة والمقدمة للعلامة.

وينبني على ما سبق ربط نظم العلامت المكونة للمكان حيث نقوم بتكوين ما يطلق عليه النظام الكودي علي قاعدة التقسيم السابق للعلامات، فالفئة الأولى من العلامات تحيلنا الي الكود المادي Substance System وهو العلاقة بين العلامة من مدخل اكتفائها بذاتها وتحليلها على الأساس النوعي/العنصري/النمطي، والفئة الثانية من العلامات تحيلنا الي الكود التشكيليForm System وهو العلاقة بين العلامة من المدخل التشكيلي وتحليلها على أساس أيقوني/مؤشر/رمزي، والفئة الثالثة تحيلنا الي الكود المعنوي Meaning System وهو علاقة العلامة من المدخل التفسيري وتحليلها على أساس نسق فردي/نسق تشكيلي/نسق مكاني.

<u>وبالتالي فإن التحليل السيميولوجي وفق هذه المنهجية يُجدول كما يلي:</u>

23- Teruyuki Monnai and Motoki Moriyama, **Semiotic Analysis of the Relation Design of Townscape**, SICE Annual Conference, 2008, University of Kyoto, Kyoto, Japan, p.138.
24- Teruyuki Monnai and Motoki Moriyama, op. cit., p.381.

مدخل التعامل مع العلامات	الأساس التحليلي	الكود	
العلامة من مدخل إكتفائها بذاتها	الأساس النوعي: كالشكل / اللون / الملمس.	الكود المادي	
	الأساس العنصري: كشباك / باب / روف.		
	الأساس النمطي: كالزخرفة / التكرار.		
العلامة من المدخل التشكيلي	الأساس الأيقوني Iconic: صورة / مجاز.	الكود التشكيلي	
	الأساس حسب المؤشر Index: الغرض الوظيفي كالتهوية/الإضاءة		
	الأساس الرمزي Symbol: الهوية/عرف اجتماعي.		
العلامة من المدخل التفسيري	الأساس الفردي: العلامة منفصلة عن المحتوى	الكود المعنوي	المعنى الخاص (الأساس الفردي).
	أساس النسق التشكيلي: العلامة وعلاقتها بأنماط التشكل المحيط باعتبار العلامة جزء من كل.		المعنى النسقي (النسق التشكيلي) • الترابط. • عرف اجتماعي/هوية. • التصنيف التشكيلي.
	أساس النسق المكاني : الأخذ في الإعتبار أنماط التشكيل لعموم المكان بإعتبارة الصياغة العامة المتضمنة والمقدمة للعلامة		المعنى في اطار المحتوى المكاني • علاقة بالقوانين • علاقة بالثقافة • علاقة بالاقتصاد • علاقة بالجغرافيا

جدول3-1: مداخل التعامل مع العلامات وفق لمنهجية التعددية السيميولوجية.
(المصدر: عن الباحث.)

وتعتبر هذه المنهجية هي الأحدث في الظهور ضمن منهجيات التحليل السيميولوجي المعماري، حيث استخدمها فريق بحث ياباني عام 2008 بقيادة كل من البروفيسور تيريوكي موناي، والبروفيسور موتوكي موریاما من جامعة كيوتو26، وقاما بدراسة أكثر من 200 مشهد ميداني تاريخي في كويتو، ونظرا لكم التعقيد من تداخل الدوال وتفسيرها، قام الفريق بتطوير برنامج حاسوبي بالكمبيوتر يستطيعوا من خلاله تكوين قاعدة البيانات للدوال والعلامت وطريقة تصنيفها واستخراج النظام الكودي المعنوي والتشكيلي وفيما يلي توضيح لشرح كيفية عمل البرنامج الذي أطلق عليه SC اختصارا لـ Systemic code وذلك كما ورد ضمن الورقة البحثية27:

25- Teruyuki Monnai and Motoki Moriyama, op. cit., p.385.
26- Teruyuki Monnai and Motoki Moriyama, op. cit., p.385.

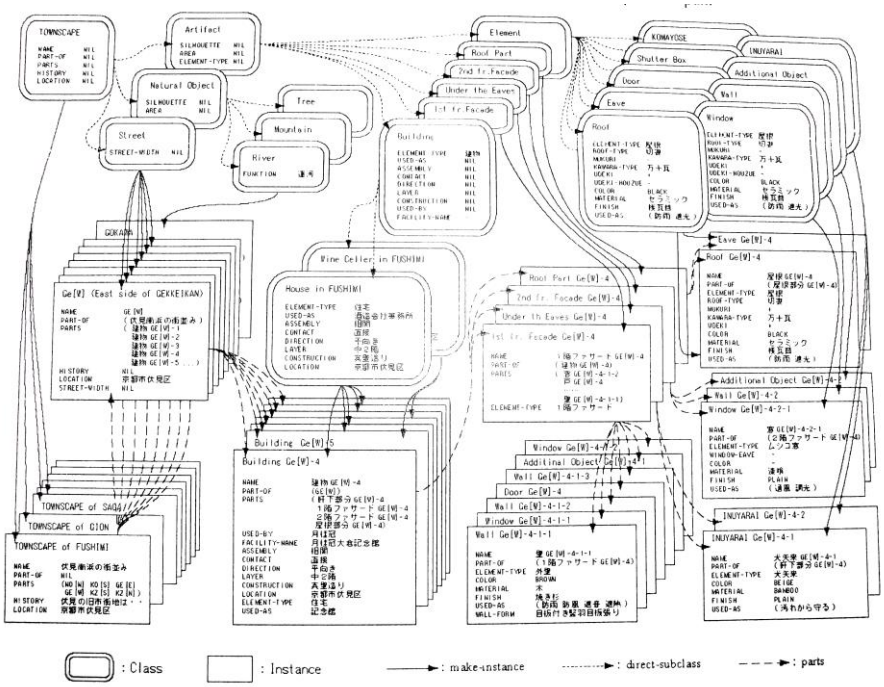

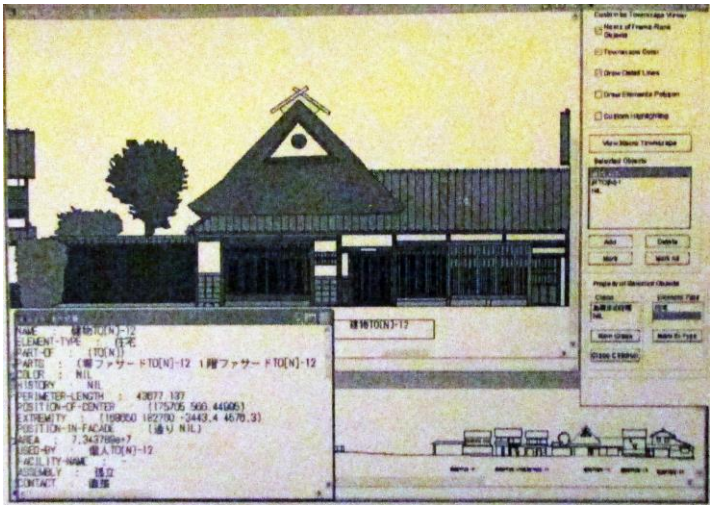

شكل 3-1: توضيح لعمل برنامج التحليل السيميولوجي.

(Teruyuki Monnai and Motoki Moriyama, Semiotic Analysis of the Relation Design of Townscape, SICE Annual Conference, 2008, University of Kyoto, Kyoto, Japan, p.385)

شكل 3-2: Prof. Teruyuki Monnai، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة كيوتو، اليابان.
(المصدر:.www.ar.t.kyoto-u.ac.jpg ، بتاريخ: 10 أغسطس 2013.)

شكل3-3: Prof. Motoki Moriyama، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة كيوتو، اليابان.
(المصدر:.www.ar.t.kyoto-u.ac.jpg ، بتاريخ: 10 أغسطس 2013.)

(3-4-2)السيميولوجيا كمنهجية لتحليل الهوية من خلال العمارة : (المنهجية التعددية السيميولوجية المشروطة)

إذا كانت فرضيتنا تنبني علي أن للهوية من خلال العمارة ثلاث مستويات هي المستوى الدلالي والمستوي التصريحي والمستوي الكامن ، فإن منهجية التعدد السيميولوجي تفترض ثلاث مداخل لدرساة العلامة من خلال العمارة هي المدخل الذاتي والمدخل التكشيلي والمدخل التفسيري كما سبق ذكره ، وإذا أردنا المقاربة بين فرضيتنا عن تكوينات الهوية وبين تقسيم منهجية التعددية نخلص الي الآتي :

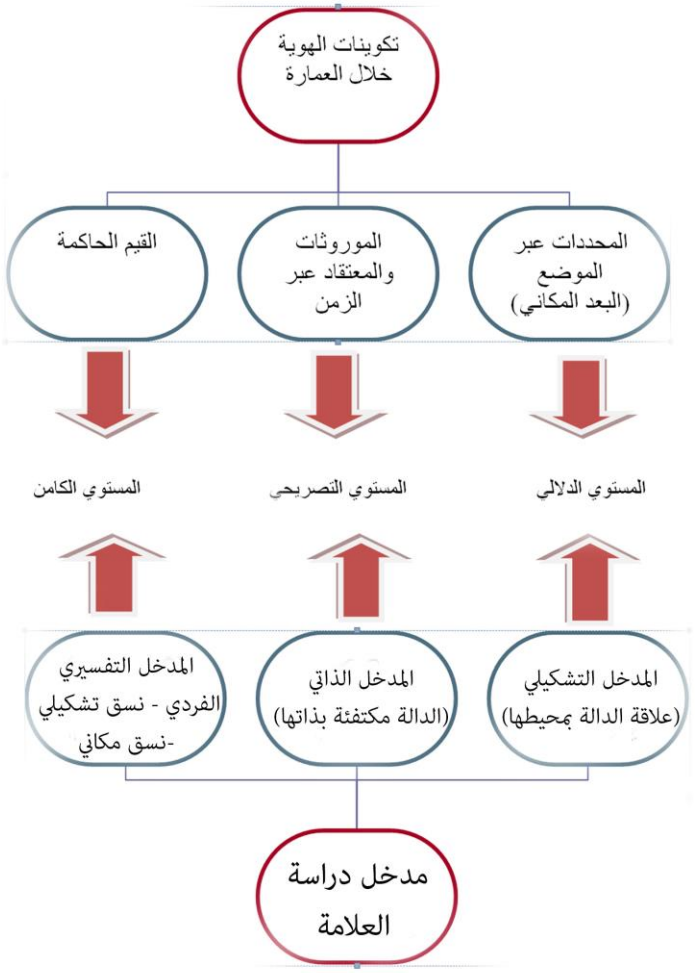

شكل3-4:المقاربة بين مكونات الهوية ومدخل دراسة العلامة
(المصدر:عن الباحث)

نجد أن تلك المقاربة تقودنا الي مدخل يمكن من خلاله الوصول الي منهجية واضحة لتحليل أو تخليق مفهوم الهوية من خلال العمارة.ولما كانت التعددية السيميولوجية المشروطة ترتكزفي تحليلاتها علي مفهوم فلسفي يقف وراء فكرة العلامة (sign) من خلال العمارة ،فكذلك فرضيتنا عن الهوية هي تعبير عن مجموعة من القيم يتطابق معها الجوهر مع المظهر في المحتوى المكاني والزماني .

الربط بين السيمولوجيا/ الهوية – العمارة التراثية/ المعاصرة:

إن الربط الذي نفترضه بين المصفوفة التي نقترحها هو (القيمة) ، فالقيمة هي مرتكز الهوية كما سبق الذكر ، والقيمة – أي قيمة – هي المرتكز الفلسفي الذي يقوم عليها مفهوم العلامة (sign) من خلال السيميولوجيا ، والقيمة ومفرادتها المعمارية هي الفارق الجوهري بين العمارة التراثية والمعاصرة.

ومثال علي ذلك إذا قمنا بأخذ قيمة (المعرفة والتعلم) للمقارنة بين العمارة التراثية والمعاصرة ، سنجد أن (الهوية) في النسيج العمراني المنبثق جزء منها عن قيمة المعرفة في المجتمع واضحة لا تخطئه العين في العمارة التراثية ،حيث نجد النسيج العماراني في شارع المعز لدين الله الفاطمي يحتوي علي الكتاتيب ومدارس المماليك المختلفين علي الرغم من الطابع التجاري للشارع ،هذا من المدخل الذاتي – أما من المدخل التشكيلي (الأيقوني – الرمزي – الوظيفي) لهذه الكتاتيب ومفرادتها المعمارية بالنسبة لمحيطها فسنجد أنها تقارب في تشكيلاتها المساجد لربما إشارة الي مدي الإرتباط بين قيمة التعلم والمعرفة وبين قيمة (العبادة) ، إن القدسية والإلتزام الذي كان يفرضها المجتمع علي طلب العلم كانت بمثابة قدسية العبادة والصلاة بالمساجد .

إن ما سبق من تحليل مبسط جدا عن قيمة (المعرفة) في شارع المعز التراثي يوضح بلا شك جانب من جوانب (الهوية) في المجتمع التي تترجم بشكل واضح جدا في النسيج والتشكيل العمراني ، ونتسائل عن هذا المكون للهوية في النسج العمرانية الحديثة كشارع التسعين بالقاهرة الجديد والذي يأخذ الطابع التجاري كما هو الحال في شارع المعز ، إن إختفاء سيميولوجيا علامات المعرفة في النسيج العمراني الحديث أدي الي اختلاف جزء من الهوية العمرانية ، وليس المقصود حين نذكر إختفاء سيميولوجيا المعرفة أننا نريد عودة الكتاتيب مثلا ، ولكن أن توجد علامات تترجم علي المدخل الذاتي أو التشكيلي أو التفسيري لتشير الي قيمة المعرفة داخل المجتمع بحيث تشكل استمرارا لأحد القيم المشكلة للهوية.

ولربما لا يتسع المجال في هذه الورقة لأخذ مثال تطبيقي مقارن لما نطرحة من رؤية سيميولوجية تطبيقة لفرضيتنا عن الهوية من خلال العمارة ، إلا أن ما أردنا إستنتاجه أو الوصول إليه هو البرهنه علي أنه من الممكن طرح السيويولوجيا كمنهجية تحليلية تساعدنا عليوضع مفاصل ومباديء واضحة وعصرية لقضية الهوية من خلال العمارة لا تنفصل عن تراثنا العظيم ولكن تستلهم وتستمد منه روح عصرية تسري في مفرادتنا المعمارية الحديثة.

(4)النتائج والتوصيات:

- لا يمكن إلي الآن ألا يحدد مفهوم واضح للهوية من خلال العمارة ، لذلك نوصي بصك تعرف للمصطح معتمد من جهات رسمية ويروج له في المحافل العلمية المعمارية ، لا سيما المؤسسات العربية.

- الهوية من خلال العمارة ليست بالضرورة طراز معماري بعينة وإنما تقاطع بين قيم فلسفية ونسق ومحيط مكاني وموروث زماني.

- الدفع بالسيميولوجيا كمنهجية ناشئة وفعالة لتكون منهج تحليلي أساسي للنقاد والمصممين المعماريين والعمرانيين.

- التوسع في الدراسات السيمولوجية النقدية للتراث المعماري والعمراني العربي والعالمي ،للوقف علي المنظومة القيمية والمعنوية التي تقف وراء هذا التراث.

- الترويج الي أهمية إرتكاز التصميمات المعمارية الحديثة الي هوية وقيمة (كالمعرفة – الستر – الترابط .. الخ) لا الي الإقتباس والتكنولوجيا فقط.